السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

الصراع العثماني الأوربي في البحر المتوسط وتداعياته - 2

أ.د. عبد القادر فكاير

3 - معركة ليبانت 1571 :

كان العثمانيون يركزون اهتمامهم على فتح جزيرة قبرص التي كانت عقبة كبيرة في طريق التجارة بين مصر وإسطنبول والتي يسيطر عليها البنادقة ويمارسون من خلالها بعض أعمال القرصنة البحرية . ولما شعر سليم الثاني بالقلق تجاه الغارات التي كانت تقوم بها السفن القبرصية ضد مصالح بلاده.أنذرها عدة مرات ، ثم طلب من حاكمها تسليم الجزيرة على شرط إبقاء السلم بين البلدين، لكن مجلسها رفض ذلك التهديد. عندئذ عزم على فتحها. فجهز قوة بحرية بلغت مائة ألف جندي بقيادة بيالي باشا . وفي 9 سبتمبر1870 هاجم القائد العثماني اسكندر مدينة نيقوسيا فاحتلها ، ثم تبعتها مدن الجزيرة الأخرى.

وكانت قبرص تمثل أهمية خاصة للعالم المسيحي في صراعه مع الدولة العثمانية، لذا تحرك البابا بيوس الخامس(PieV) (1566-1572) ودعا إلى تشكيل حلف مقدس ضد الدولة العثمانية. أسرعت الأمم المسيحية لتلبية نداء البندقية خوفا من امتداد الزحف الإسلامي نحو إيطاليا ، وتم التوقيع عليه في 25 مايو 1571م مع ملك أسبانيا والبندقية وبعض الدويلات المسيحية. وعين دون خوان النمساوي قائدا عاما للتحالف. بلغ عدد مراكب أسطول التحالف ثلاثمائة وسبعة عشر سفينة تنتمي إلى كل من أسبانيا ، والبندقية وإلى البابوية ، ورهبنة مالطا.

غادر الأسطول المسيحي مضيق ميسينا في 16 سبتمبر 1571 ، ووصل إلى رأس كولون في جنوب إيطاليا يوم 20 سبتمبر ، وبعد ستة أيام وصل إلى جزيرة كورفو ثم تقدم نحو خليج باتراس عند مدخل خليج ليبانت وكان عدد السفن الإسلامية المتجمعة في الخليج المذكور نحو ثلاثمائة وحدة على متنها خمسة وعشرون ألف رجل ، جاءوا من الجزائر

واسطنبول ورودس وسوريا وطرابلس والأسكندرية. فكان علي باشا يحتل القلب، محمد شولوك باي الأسكندرية يقود الميمنة،أما علج علي فكان يقود الميسرة.

ولما كانت الجزائر تحظى بمكانة خاصة في مساندة القوات العثمانية ضد الأخطار المسيحية ، أرسل السلطان خطابا إلى بايلر باي الجزائر مؤرخا في 2 ذو القعدة 978هـ/أفريل 1571م ، يطلب منه الانضمام إلى الأسطول العثماني، جاء فيه :<< لقد تقرر في هذه السنة الأخيرة غزو الكفار من البر والبحر وإلحاق الخسارة بجزره المعادية ـ هزمه الله ـ وكذلك بقصد دفع ورفع مضرته وفساده ، ونظرا لاعتمادي الهمايوني على حسن فراستك وكياستك ووفور شجاعتك وشهامتك، فإنني آمرك ومن معك من السفن والقاليتات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الزير يرتو باشا >>. وبعد مرور أربعين يوما من الخطاب السابق أرسل السلطان خطابا لعلج علي يحثه فيه على عدم التأخر في الالتحاق به ، دون إهمال البلاد التي كان على رأسها ، على أن يخلف على رأسها الرجال الأكفاء .

وتلبية لذلك النداء خرج علج علي من الجزائر في ربيع سنة 1571 على رأس حوالي خمسين سفينة ، للالتحاق بالأسطول العثماني . وفي طريقه هاجم علج علي عدة مواقع مسيحية من جزر ومناطق ساحلية. وبدأت المعركة بين الطرفين في 7 أكتوبر 1571 في الخليج الواقع بين باتراس وليبانت . وبعد ثلاث ساعات من بداية المعركة انهزم جيش الميمنة من الأسطول العثماني وكذلك وسطه ، حيث قضي على كل من محمد شولوك قائد الميمنة ، وعلي باشا القائد العام للأسطول الذي كان يقود القلب ، وتحولت المعركة إلى مجابهة سفينة ضد سفينة. أما علج علي الذي كان يقود جبهة الميسرة فقد استغل فرصة ابتعاد دوريا عن بقية الأسطول المسيحي وانقض على السفن المالطية واستولى على سفينة القيادة التي كان يقلها غيستياني(Guistiani). ولما حاول خوان دي كوردونا (Jean de Cordona) استرجاع تلك السفينة ، تصدى له علج علي وقضى على معظم القوات التي كان معه وعددها خمسمائة رجل من بينهم ثمانية ضباط ينتمون إلى عائلات نبيلة في أسبانيا ، ولم ينج منها سوى خمسين رجلا فقط. بعد ذلك تحرك علج علي نحو قلب المعركة إثر علمه بوفاة محمد علي باشا تولى بنفسه قيادة الأسطول. ولما حسمت المعركة على جبهتي الميمنة والوسطى لصالح المسيحيين ، جمع هؤلاء صفوفهم وتوجهوا نحوه بهدف محاصرته ، فأسرع علج علي إلى الانسحاب يقود جناحه إلى خارج نطاق المعركة ، وتوجه على عجل إلى جزيرة سانتا مورا(Santa Maura) ، ومعه أربعين سفينة ومنها إلى اسطنبول .

لقد كانت الخسائر العثمانية عظيمة حددها محمد فريد على النحو التالي: << أخذت مائة وثلاثون سفينة عثمانية ، وأحرقت وأغرقت أربع وتسعون ، وغنمت ثلاثمائة مدفعا ، وثلاثين ألف أسير >> . أما من جانب التحالف المسيحي، فقد قتل 7650 ، وجرح 7784 ، كان من بينهم الأديب الأسباني ميغال سيرفانتيس Miguel Cervantès ، الذي جرح

خلال المعركة في ذراعه . وهناك من ذكر أن عدد الجرحى بلغ 21000 جريح، كما فقد المسيحيون عشرة سفن.

ورغم نتيجة المعركة ، فقد استطاع علج علي قائد القوات الجزائرية إنقاذ شرف تلك الهزيمة ، فتمكن من إنقاذ عدة سفن لمهارته القتالية . ولهذا رأى السلطان فيه الرجل الذي باستطاعته إعادة بناء الأسطول العثماني من جديد ، فعينه في 7 نوفمبر 1571 في منصب القائد العلم للقوات البحرية العثمانية ، إلى جانب احتفاظه بلقبه السابق بايلرباي إفريقيا. وتولى حكم الجزائر خليفته أحمد عراب .